بلاغةُ الْعُدُول فِي التّعبِيرِ القُرآنِيّ
(سُورَةُ الضُّحى نمُوذجاً)

د.علاء الدين محمد الأسطى
كلية الآداب والعلوم قصر الاخيار / جامعة المرقب

المقدمة

لا غرو أن القرآن الكريم معجز الشعراء، وسابق البلغاء والفصحاء، أنزله الله على خير خلقه، وآخر رسله محمد بن عبد الله ﷺ، ووجوه بلاغة القرآن الكريم كثيرة، ما زالت حقلا خصبا للبحث والدراسة، كيف لا؟، وهو كلام الله، ووحي منه إلى نبيه ﷺ؛ ليكون معجزة يعجز بها أرباب الفصاحة والبيان من العرب في فترة كان علمهم بها أسمى العلوم، لا سيما في فن الشعر والخطابة، حتى قال فيهم عمر بن الخطاب ﷺ: "كان الشعر علم قومٍ، لم يكنْ لهم علم أصح منه" (ابن سلام، ج1، ص 24)؛ لذلك كان القرآن معجزا لأولئك القوم الذين تحداهم الله جل وعلا – وهم في الفصاحة والبلاغة من هم – أن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء، الآية 88)، بل إن الله تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فقال: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة، الآية 23).

ولما كان القرآن الكريم المثل الأعلى في البلاغة والفصاحة تعبيرا وتصويرا وتركيبا، فإنه لا مناص من الإقرار بأنه ما زال حقلا خصبا للبحث والدراسة، وميدانا واعدا بالنتائج الجديدة، وأن النص القرآني صالح لإسقاطات المناهج النقدية الحديثة، والنظريات اللسانية واللغوية والأدبية المعاصرة.

ومن هنا كان الدافع للبحث في بلاغة العدول في التعبير القرآني، وذلك من خلال الوقوف على المطالب الآتية:

أولا: مفهوم العدول:

1_ العدول لغة: العدول مصدر مشتق من الفعل عدل، " وعدلتُ الشيءَ بالشيء، أعدِله عُدُولاً إذا ساويته به، والعِدْلُ والعَدِيلُ سواء، أي: النّظير والمثيل، وقيل هو المثل، وليس بالنظير عينه..." (ابن منظور، مادة عَدَلَ). ومنه أنَّ مَنْ يشرك بربه إنما يعدِل به غيره، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (1) ﴾ (الأنعام، الآية 1).

وبهذا لا يكون العدول إلى الشيء إلا بوجود شيء آخر، سواء أكان مثيلا له، أم نظيرا، وكل ما يأتيه المرء من خطوات تجاه هذين الشيئين، هو عدول، فالموازنة بينهما قبل اختيار أحدهما هي عدول، ولو كانا متساووين. ومن العدول ترك الشيء وتجنبه، كأن يعدل الفحل عن الإبل ويتركها (ابن منظور، مادة عَدَلَ)، فهو بتركها عدل عنها إلى غيرها.

2_ العدول اصطلاحا: العدول الأقرب للمفهوم الاصطلاحي هو اختيار أحد الشيئين دون الآخر، والميل إليه عن الآخر، ومنه أن يعدل الفحل عن الإبل إذا تركها.

ولفظة (العدول)، تستعمل عادة للدلالة عن ترك شيء لأجل آخر، ففي تعريف أسلوب الالتفات مثلاً، يقول الجرجاني (ت 471 هـ): " الالتفات: العدول عن الغيبة إلى الخطاب والتكلم، أو العكس" (الجرجاني، 1405هـ، ج 1، ص 51). وكثيرا ما نقرأ جملة: " والحق لا يمكن العدول عنه..."، إذن فالعدول إلى الشيء: اختياره، والعدول عنه تركه.

وقد تكلم ضياء الدين بن الأثير (ت 637 هـ) في هذا الأسلوب البلاغي، في باب سماه: (معرفة ما يُحتاج إليه من اللغة)، وفيه وصف العدول بالباب الواسع حيث قال: " ويفتقر أيضًا مؤلف الكلام إلى معرفة عدة أسماء لما يقع استعماله في النظم والنثر، ليجد –إذا ضاق به موضع في كلامه بإيراد بعض الألفاظ– سَعةً في العدول عنه إلى غيره مما هو في معناه، وهذه الأسماء تسمى المترادفة، وهي اتحاد المسمى، واختلاف أسمائه، كقولنا: الخمر، والراح، والمدام، فإن المسمى بهذه الأسماء شيء واحد، وأسماؤه كثيرة " (ابن الأثير، ج 1، ص 37).

ثم زعم أنه أول من تكلم في العدول حيث قال ردا على من يمنع وجود اللفظ المشترك في المعنيين: " فأقول في الجواب عن ذلك ما استخرجته بفكري، ولم يكن لأحد فيه قول قبلي, وهو: أما قولك: إن فائدة وضع اللغة إنما هو البيان عند إطلاق اللفظ, واللفظ المشترك يخل بهذه الفائدة، فهذا غير مسلَّم، بل فائدةُ وضع اللغة هو البيان والتحسين.

أما البيان: فقد وفَّى به الأسماء المتباينة، التي هي كل اسم واحد دلَّ على مسمًّى واحد، فإذا أطلق اللفظ في هذه الأسماء كان بينًا مفهومًا لا يحتاج إلى قرينة، ولو لم يضع الواضع من الأسماء شيئًا غيرها لكان كافيًا في البيان.

وأما التحسين: فإن الواضع لهذه اللغة العربية التي هي أحسن اللغات, نظر إلى ما يحتاج إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نظم ونثر، ورأى أنَّ من مهمات ذلك "التجنيس"، ولا يقوم به إلّا الأسماء المشتركة التي هي كل اسم واحد دلَّ على مسميين فصاعدًا، فوضعها من أجل ذلك، وهذا الموضع يتجاذبه جانبان يترجَّح أحدهما على الآخر.

وبيانه أن التحسين يقضي بوضع الأسماء المشتركة، ووضعها يذهب بفائدة البيان عند إطلاق اللفظ، وعلى هذا, فإن وَضَعَها الواضعُ ذهب بفائدة البيان، وإن لم يضع ذهب بفائدة التحسين، لكنه إن وضع استدرك ما ذهب من فائدة البيان بالقرينة، وإن لم يضع لم يستدرك ما ذهب من فائدة التحسين، فترجَّح حينئذ جانب الوضع فوضع "(ابن الأثير، ج 1، ص 39).

وهو بهذا يجعل لاشتراك الألفاظ فائدة هي التحسين، الذي هو من مهارات أرباب الفصاحة والبلاغة، وهو أعلى مرتبة من البيان؛ وإن لم تكن له ضوابط باستثناء الذوق السليم، فإن اختيار لفظة دون أخرى تشترك معها في المعنى، يعد من السمات المهمة والدقيقة، فقال: " ومن هذا النوع ألفاظٌ يُعْدَل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها، ولا يُسْتَفْتَى في ذلك إلّا الذوق السليم، وهذا موضع عجيب لا يُعْلَمُ كُنْه سِرِّه "(ابن الأثير، ج 1، ص 277). وهذا قريب لما أشار إليه علماء الأسلوبية المعاصرون، الذين يرون أن العدول: " يمثل الطاقة الإيحائية في الأسلوب " (عبد المطلب، 1994م، ص 270).

ثم جعل ابن الأثير (ت 637 هـ) العدول قسما من أقسام التوسع في الكلام، وقال بإن التوسع في الكلام مطلوب.(ينظر ابن الأثير، ج 1، ص 348).

وأكد على أهمية العدول وخصوصيته، فقال: " واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيانِ أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارهما، وفتش عن دفائنهما، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيانِ وأدقها فهماً، وأغمضها طريقاً "(ابن الأثير، ج 2، ص 12).

والخلاصة أن العدول يكون في الألفاظ المشتركة في المعنى، حتى إذا اختار المتكلم لفظا دون آخر لفائدة بلاغية، كان أكثر بيانا، وأجمل تحسينا.

والعدول عند المعاصرين هو رصد انحراف الكلام عن النسق المألوف، ومن خلاله يمكن التعرف على طبيعة الأسلوب، بل لربما كان هو الأسلوب ذاته؛ لأن اللغة عندهم مستويان: مستوى مثالي في الأداء العادي، وآخر إبداعي يخترق هذه المثالية، ويسمى الانتهاك، أو الانحراف، وهذا هو العدول. (ينظر عبد المطلب، 1994م، ص 268).

وقد ضرب ابن الأثير (ت 637 هـ) أمثلة من القرآن الكريم، منها قوله: " فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ، إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ، (هود، الآيتان 53، 54)، فإنه إنما قال: ﴿ أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا ﴾، ولم يقل: "وأشهدكم "؛ ليكون موازنا له وبمعناه؛ لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدَل به لفظ الأول؛ لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: " أشهد علي أني أحبك"، تهكما به، واستهانة بحاله ". (ابن الأثير، ج 2، ص 11، 12).

وفي معرض استقراء اللطائف البلاغية من حين لآخر في كتب التفسير والبلاغة، تبين شيوع أسلوب العدول في القرآن الكريم، ومن ثم وقع الاختيار على سورة الضحى، التي تكلم كثير من البلاغيين وبعض المفسرين لها عن فوائد بلاغية في اختيار بعض الألفاظ، والعدول عن أخرى، والعدول لذكر كلمات في مواضع، ثم العدول إلى حذفها في مواضع أخرى.

ثانيا: سورة الضحى: من المشهور أن الله تعالى تحدى العرب أن يأتوا بسورة من مثل سور القرآن، ولم يستثن سورة من سوره؛ لذلك فإن البحث في سورة الضحى – وهي من قصار السور –، لا يعد نقصا أو قصورا في البحث، حيث إنها كغيرها من سور القرآن الكريم واعدة بالنتائج والأسرار البلاغية واللغوية تعبيرا وتصويرا، خاصة وأنها نزلت على رسول الله ﷺ، في ظرف استثنائي، يجدر الانتباه له في تحليل هذه السورة الكريمة؛ لأنه يساعد على الوقوف لاستنتاج الأسرار البلاغية واللغوية.

1_ سورة الضحى سورة مكية، من قصار السور، وهي السورة الثالثة والتسعون في ترتيب المصحف، وعدد آياتها إحدى عشرة آية، وهي قوله تعالى:

﴿ وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11) ﴾.

2_ سبب نزول السورة:

لا مبالغة في القول: إن سبب نزول سورة الضحى مشهور ومعلوم، وهو أن الوحي قد أبطأ عن رسول الله ﷺ، وفي ذلك تعددت الروايات، منها: أن رسول الله ﷺ اشتكى، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد؛ إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا، ومنها: أن رسول الله ﷺ مكث أياما لا ينزل عليه جبريل، فقالت أم جميل امرأة أبي لهب: ما أرى صاحبك إلا ودعك وقلاك. ومن الروايات المشهورة[47] أن جروا دخل بيت النبي ﷺ، فدخل تحت السرير فمات، فمكث النبي ﷺ أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي، فاشتكى لخادمته، فهيأت البيت وأخرجت الجرو، فجاء النبي ﷺ، يرعد بجبته، وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته رعدة، فأنزل الله: ﴿ وَالضُّحَى (1) ﴾ إلى قوله: ﴿ فَتَرْضَى (5) ﴾. (ينظر السيوطي، 2004م، ص 271).

ثالثا: العدول في السورة:

1_ العُدُولُ فِي الفَاصِلَةِ: والفاصلة: " كلمة آخر الآية، كقافية الشعر، وسجعة النثر، والتفصيلُ: تَوَافُقُ أَوَاخرِ الآي في حروف الروي، أو في الوزن، مما يقتضيه المعنى، وتستريح إليه النفوس ". (الحسناوي، 2004، ص 29).

والفاصلة في سورة الضحى تتغير من الألف المقصورة، في كل من (والضحى، سجى، قلى، الأولى، فترضى، فآوى، فهدى، فأغنى)، إلى الراء في كل من: (تقهر، تنهر،) بينما تنفرد الفاصلة الأخيرة في كلمة : (فحدث)؛ لتكون على حرف الثاء الذي لم يكن موجوداً في السورة أصلاً إلا في هذه الكلمة.

[47] - قال الحافظ بن حجر: " وقصة إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة، لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب شاذ، بل مردود بما في الصحيح والله أعلم ". فتح الباري، ج 8، ص 710.

وبالنظر إلى مناسبة كلمات الفواصل لآياتها، فإن المناسبة واضحة جلية في عدد منها، وذلك في الآيات الواقعة في الآية الخامسة وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) ﴾، وفي الآيتين التاسعة والعاشرة في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) ﴾. فالعطاء يناسبه الرضى، ومعاملة اليتيم لا يناسبها القهر، ومعاملة السائل لا يناسبها النهر.

وتبقى مناسبات بقية الفواصل مستترة خفية، تحتاج إلى بحث ودراسة، ثم إلى تأمل، منها:

أ_ فاصلة ﴿ وَالضُّحَى (1) ﴾، لماذا عَدَل الله تعالى في هذه السورة بالذات إلى القسم بالضحى؟، وعَدَلَ عن القَسَمِ بآيات أخرى عظيمة كالفجر، والشمس، والليل، والنهار، والقمر، وغيرها ؟.

ما عليه جمهور المفسرين أنّ الله اختار القسم بالضحى؛ لأنه الوقت الذي كلم الله فيه نبيه موسىعليه السلام؛ أو أنه الوقت الذي خر فيه السحرة سجدا بعد توبتهم من السحر، (ينظر الزمخشري، 1407هـ، ج 4، ص 765، وابن عادل 1419هـ، ج 20، ص379، والقرطبي، 1384هـ، ج 20، ص 91)، مستدلين للرأي الثاني بقوله تعالى: ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾. (طه، الآية 59).

وقد علل شهاب الدين الألوسي (ت 1270هـ) لمن قالوا إنه الوقت الذي كلم فيه الله تعالى نبيه موسى عليه السلام، وذكر المناسبة حيث قال: "... ؛ ولأنه على ما قالوا: الساعة التي كلّم الله تعالى فيها موسى عليه السلام، وألقي فيه السحرة سجداً؛ لقوله تعالى : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحىً ﴾(طه، الآية 59)، ففيه مناسبة للمقسَم عليه، وهو أنه تعالى لم يترك النبيَّ ﷺ ، ولم يفارقه إلطافه تعالى وتكليمه سبحانه...". (الألوسي، 1415هـ، ج 15، ص 372). وهذا توجيه مقبول؛ لأنه يأخذ بعين الاعتبار مناسبة نزول السورة، وهي أن الله تعالى يطمئن حبيبه المصطفى ﷺ بأنه لن يتركه، وسيكلمه وحيا، وسيعطيه حتى يرضى.

وأما ابن عادل (ت 880 هـ)، فقد أورد في اللباب أقوالا لم ينسبها لقائليها منها: أن الضحى نور الجنة، والليل ظلمة النار، وأن الضحى نور قلوب العارفين، والليل سواد قلوب الكافرين. (ينظر ابن عادل، 1419هـ، ج 20، ص 379).

وقال القرطبي (671 هـ) في قوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) ﴾ " يعني عباده الذين يعبدونه في وقت الضحى، وعباده الذين يعبدونه بالليل إذا أظلم". (القرطبي، 1384هـ، ج 20، ص 92).

ولا يخفى ما في هذه التفسيرات من تكلف؛ لعدم وجود مناسبة أو قرينة لها.

وكان شهاب الدين الألوسي (ت 1270 هـ)، قد اهتم كثيرا لمناسبة نزول السورة؛ ليتسنى له الوقوف على لطائف عدة، منبّها على أنها من باب التأويل والإشارة، ولا دخل للتفسير فيها، فالسورة – كما هو مشهور – جاءت تطمينا وتحنانا على النبي ﷺ؛ ولهذا كانت بعض التأويلات والإشارات ذات وجوه معتبرة، منها:

- القسم بالضحى، وهو الوقت الذي كلّم الله فيه نبيه موسى عليه السلام، إشارة إلى أن الله تعالى لن يترك تكليم نبيه محمدا ﷺ.
- أن الضحى إشارة إلى الرسالة المحمدية، وأن الليل هو احتباس الوحي؛ لأن في النزول استئناس، وفي الاحتباس استيحاش؛ فالوحي إشراقة لهذه الأمة، والاحتباس عتمة عليها.
- أن الزمان ساعة من نهار، وساعة من ليل، وتارة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار، وأخرى بالعكس، فلا الزيادة لهوى، ولا النقصان لقلى، بل كلٌّ لحكمة. ومن ثم فإن الوحي تارة إنزال، وأخرى حبس. (ينظر الألوسي، 1415هـ، ج 15، ص 373). وهذه هي الدنيا تتقلب بين السراء والضراء.

والناظر بعين المتأمل يلمس لطافة التأويلات التي أخذت بعين الاعتبار مناسبة نزول السورة، فالحالة التي كان عليها المصطفى ﷺ، مع إبطاء الوحي وشماتة المشركين، وحزن المسلمين، تُحدِّثُ بأن الله تعالى يربت على فؤاد محبوبه، ويحنو عليه، ويطمئنه بهذه السورة، بدليل أنه يذكره بأنه آواه في يتمه، وهداه بعد ضلالة – ضلالة معرفة هذا الدين جملة وتفصيلا –، وأغناه بعد فقر، وسيأتي بيانه في عدول الألفاظ.

ولا مبالغة في القول بأن الضحى هو إشراقة الوحي على هذه الأمة، وأن الليل هو عتمة احتباسه عنها، وأن الضحى والليل هما نقيضان يدلان على تقلب هذه الدنيا بين السراء والضراء، وأن الله الذي أنعم على حبيبه المصطفى في السراء، لم ولن يتخلى عنه في الضراء.

ب- **فاصلة: ﴿ سَجَى (2) ﴾**، لماذا عَدَل الله سبحانه إلى الفعل سجى، في الوقت الذي عدل فيه عن أفعال أخرى، فلم يقل مثلا، : والضحى والليل إذا دجى، أوْ وَالليل إذا يغشى، أوْ وَالليل إذا غشَّى؟.

للإجابة لابد من الوقوف على معنى الفعل سجا، وسجا معناه: سكنَ ودَامَ، وركد، ومعنى ركد : سكن، وقال مَعْمَر: ﴿ واللَّيْلِ إذَا سجَى ﴾ إذا سكنَ بالناسِ ، ومنه قول الشاعر[48]:

يا حَبّذَا الْقَمْراءُ، وَاللَّيْلُ السَّاجْ ....

وما زال معنى سجا يدور حول السكون، حتى إنهم قالوا: " وامرأَةٌ سَجْواءُ الطّرْفِ، وساجيةُ الطرف: فاتِرة الطّرْفِ، ساكِنَته، وطرْفٌ ساجٍ أَي: ساكِنٌ، وناقة سَجْواءُ: ساكِنةٌ عند الحَلْبِ..." . (ابن منظور، مادة سجا).

ولم يخرج جمهور المفسرين عن معنى السكون، ، (ينظر الزمخشري، 1407هـ، ج 4، ص 765، وابن عادل، ج 20، ص379، وابن عطية، 1422هـ، ج 5، ص 493، والقرطبي، 1384هـ، ج 20، ص 91)، وهذا المعنى لا يوجد في كلمة الدجى التي تعني سواد الليل مع غيم، فلا يرى فيه نجم ولا قمر، (ابن منظور، مادة دجا)، ولا يوجد في كلمة يغشى، التي تعني أنه يغطي بظلامه، أو غشّى، التي تعني أطبق وألبس، وغطى. (ابن منظور، مادة غشا).

ومن الواضح مناسبة اختيار الفاصلة: ﴿ سجَى ﴾، والعدول عن غيرها؛ لما فيها من السكون الباعث على السكينة والطمأنينة؛ – موضوع السورة –، وفي هذا يقول الألوسي (ت 1270هـ): " ... وتخصيص الليل بناء على أن المراد وقت اشتداد الظلمة؛ قيل لأنه وقت خلو المحب بالمحبوب، والأمن من كل واش ورقيب...". (الألوسي، 1415هـ، ج 15، ص 374).

ومعلوم أن اجتماع الظلمة مع السكون، يبعث في النفس رواحاً وارتياحاً بين المتحابّين، وإليه ذهب الطيبي فقال: إن الله تعالى : " ... أقسم له ﷺ بوقتين فيهما صلاته عليه الصلاة والسلام، التي جُعلت قرةَ عينِه، وسببَ مزيدِ قربِه وأنسِه، أمّا الضحى؛ فلِما رواه الدارقطني في المجتبى عن ابن عباس

[48] - جاء في لسان العرب (مادة سجا) أن البيت للحارثي، ولم يذكر اسمه، ولم يتسن التعرف عليه عند غيره، ولعله أراد جعفر بن علبة الحارثي، أو عبد الملك الحارثي.

مرفوعاً، أن الرسول ﷺ قال: ﴿ كُتِبَ عَلَيَّ النَّحْرُ وَلَمْ يُكْتَبْ عَلَيْكُمْ وَأُمِرْتُ بِصَلاَةِ الْضُحَى وَلَمْ تُؤْمَرُوا بِهَا ﴾. (الدارقطني، 1386 هـ، ج 4، ص 282).

وأما الليل؛ فلقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نافِلَةً لك ﴾، (الإسراء، الآية 79)؛ إرغاماً لأعدائه وتكذيباً لهم في زعم قلاه وجفائه، فكأنه قيل وحق قربك لدينا، وزلفاك عندنا، إنا اصطفيناك، وما هجرناك وقلياناك". (الألوسي، 1415هـ، ج 15، ص 374).

ومن هنا يتبين أن الله أقسم لحبيبه المصطفى بوقتين لهما عنده حظوة، لا سيما وقت سكون الليل؛ حيث يناجي الحبيب ربه متهجدا حتى تكاد تتشقق قدماه.

ج – **فاصلة ﴿ قَلَى (3) ﴾**، والسؤال هنا: لماذا عدل إلى حذف الضمير، وقد عدل إلى ذكره في قوله: ﴿ ودعك ﴾؟.

الظاهر الذي عليه بعض المفسرين أن حذف الكاف من (قلى) جاء لمراعاة الفاصلة، غير أن آخرين كان لهم توجيه بلاغي لطيف، ومنهم شهاب الدين الألوسي (ت 1270 هـ)، حيث قال: " وحذف المفعول؛ لئلا يواجه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى، –وإن كانت في كلام منفي –لطفا به ﷺ، وشفقة عليه، عليه الصلاة والسلام؛ أو لنفي صدوره عنه عز وجل بالنسبة إليه ﷺ، ولأحد من أصحابه ومن أحبه ﷺ إلى يوم القيامة... ". (الألوسي، 1415هـ، ج 15، ص 375).

وقد ذهبت عائشة بنت الشاطئ (ت 1419هـ) إلى رفض القول بأن حذف الكاف جاء لمراعاة الفاصلة، حيث قالت: " ولو كان البيان القرآني يتعلق بهذا؛ لَمَا عدل عن رعاية الفاصلة في الآيات بعدها: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ، وليس في السورة كلها (ثاء) فاصلة، بل ليس فيها حرف ثاء على الإطلاق، ولم يقل تعالى: فخبر؛ لتتفق الفواصل على مذهب أهل الصنعة ومن يتعلقون به.

ويبقى القول بأن الحذف لدلالة ما قبله على المحذوف، وتقتضيه حساسية معنوية مرهفة، بالغة الدقة في اللطف والإيناس، هي تحاشي خطابه تعالى لحبيبه المصطفى في مقام الإيناس: ما قلاك؛ لما في القلى من الطرد والإبعاد وشدة البغض، أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه قد يؤذن بالفراق على كره، مع رجاء العودة واللقاء..." (بنت الشاطئ، 1977م، ج 1، ص 35).

د- فاصلة ﴿ الْأُولَى (4) ﴾، وهنا كان العدول إلى (الأولى) عن مرادفات أخرى مثل (الدنيا)، فما السر في هذا العدول؟.

إن العدول إلى التعبير بـ ﴿ الأُولَى ﴾، يرشح تفسيرا آخر لقوله: ﴿ وَلَلآخِرَةُ ﴾، التي تحتمل أن تكون آخر أمر الإسلام، وليست الدار الآخرة التي هي يوم القيامة.

بمعنى أن يكون آخر أمر الرسالة خيرا من أوله، نصرا وفتحا وسيادة، وهو ما احتمله ابن عطية (ت 542 هـ) حيث قال : " ... ويحتمل أن يريد حالَيْهِ في الدنيا قبل نزول السورة وبعدها، فوعده الله تعالى على هذا التأويل بالنصر والظهور... ". (ابن عطية، 1422هـ، ج 5، ص 493، 494).

وقد فسر الألوسي (ت 1270 هـ) رأي ابن عطية (ت 542 هـ)، فقال: " وقال ابن عطية وجماعة: يحتمل أن يراد بهما نهاية أمره ﷺ وبدايته، فاللام فيهما للعهد، أو عوضٍ عن المضاف إليه، أي: لَنِهَايَةُ أمرك خيرٌ من بدايته، لا تزال تتزايد قوة وتتصاعد رفعة...". (الألوسي، 1415هـ، ج 15، ص 377). وعلى هذا كان العدول إلى قوله: (الأولى) أنسب من أن يعبر بالقول: (الدنيا).

هـ-فواصل ﴿ فَآوَى (6)، فَهَدَى(7)، فَأَغْنَى (8) ﴾، وفيها عدل سبحانه إلى حذف المفعول به، وهو الكاف، وقد تبين في فاصلة (قلى) تكريم الله لنبيه ﷺ بحذف الكاف؛ لأن القلى يكون بين المتباغضين، أما في هذه الفواصل، فإن ذكر المفعول مقبول مع الأفعال (آوى، هدى، أغنى)، ومع ذلك فقد عدل إلى حذف الضمير!.

والمتأمل لمعاني هذه الآيات يلمس أن حذف الكاف قد أفاد العموم، أي أن الإيواء، والهداية، والإغناء، كان للرسول ﷺ وللمسلمين، أو أنها مجتمعة كانت للرسول ﷺ وللناس كافة، وفي ذلك تقول عائشة بنت الشاطئ (ت 1419هـ): " وفي حَذْف كافِ الْخِطَابِ مِن ﴿ فَآوَى، فَهَدَى، فَأَغْنَى ﴾، قال مُفسِّرُون بالحَذْفِ لِرعايةِ الفَوَاصِلِ، وهو ما لا نَرَى البَيَان العَالِي يتعلَّقُ بِه، وأَوْلَى منْهُ: قولُ مَنْ قَالُوا بالحَذْفِ لدلالةِ صَرِيحِ السِّياقِ على المخَاطَبِ، ونُضِيفُ إليها فائدةَ الْإِطْلاقِ، فتَحْتَمِلُ: فَآوَاكَ وآوَى بِرِسالَتِكَ اليَتامَى والْمُسْتَضْعَفِينَ، فهَداكَ وهدَى بِكَ أُمَّتَك، فأَغْناكَ وأَغْناهَا بكَ ". (بنت الشاطئ، 1977م، ج 1، ص 51).

ثم إن هذه الآيات، وإن كانت موجهة للرسول ﷺ فقط، فإنها أيضا تفيد العموم، وفي ذلك قال ابْنُ الْقَيِّم (ت 751 هـ): " وهذا يَعُمُّ ما يُعْطِيه مِن القُرْآنِ، والْهُدَى، والنَّصْرِ، وكثرةِ الأتْبَاعِ، ورَفْعِ ذِكْرَاهُ، وإعْلاءِ كلِمَتِه، وما يُعْطِيه بعْدَ مَمَاتِه، وما يُعْطيهِ في موْقِفِ القِيَامَةِ، وما يُعْطِيهِ في الْجَنَّةِ " (ابن القيم، ج 1، ص 73).

و- فاصلة ﴿ فَحَدِّثْ (11) ﴾، وهنا كان العدول إلى قوله: ﴿ فَحَدِّثْ ﴾، دون غيرها من المرادفات، لا سيما فخبر التي تناسب الفاصلتين اللتين قبلها وهما: ﴿ تَقْهَرْ، تَنْهَرْ ﴾.

لا مبالغة في القول: إن العدول إلى قوله: ﴿ فَحَدِّثْ ﴾، دليل على أن الأسلوب القرآني لا يراعي اللفظ على حساب المعنى، حيث إنه هنا لم يراع الفاصلتين: ﴿ تَقْهَرْ، تَنْهَرْ ﴾، خاصة إذا أضفنا دليل حذف الكاف من فاصلة: ﴿ قَلَى ﴾ الذي سبق ذكره.

ومن هنا يمكن القول: إن في العدول إلى قوله: ﴿ فَحَدِّثْ ﴾ فيه تجديد للأسلوب الذي تعودته العرب، سواء في الشعر ومراعاة القوافي، أم في النثر ومراعاة فاصلة السجع؛ وعليه فقد جاءت هذه الفاصلة مجددة للتعبير العربي شعرا ونثرا.

هذا من جهة الشكل، ولو أنعم المتأمل البصيرة في المعنى، لآنس الفرق بين معنى الإخبار، ومعنى التحديث، فالإخبار يكون مرة واحدة، والتحديث يكون صاحبه مداوما على تكرار الخبر؛ وبذلك يكون التعبير بقوله : ﴿ فَحَدِّثْ (11) ﴾، هو الأبلغ. وفي هذا قال الألوسي (ت 1270هـ): " وآثَرَ سبحانه فَحَدِّثْ عَلَى فَخَبِّرْ، قيل: ليكون ذكر النعمة منْهُ عليه الصلاة والسلام حديثاً لا ينساه، ويوجده ساعة غِبّ ساعة ". (الألوسي، 1415هـ، ج 15، ص 384).

2_ العدول في الألفاظ: تبين في المطلب السابق كيف أن العدول إلى الفواصل كان لغايات وأسرار بلاغية، وفي هذا المطلب يمكن الوقوف على بعض الألفاظ التي لم تكن في موضع الفاصلة، ومنها:

أ_ العدول إلى لفظ : ﴿ وَدَّعَكَ ﴾، حيث عدل سبحانه عن ألفاظ أخرى فلم يقل: (ما تركك، أو ما خَلاَّكَ).

جاء في لسان العرب أن الترك هو التخلية، وخلّى الأمر، وتخلى منه وعنه: تركه، وقولهم: أنا خليٌّ منكَ، أي: بريءٌ منك. (ابن منظور، مادة ترك، خلا)، وأما التوديع فيكون في الخفض والدعة معا. (ابن منظور، مادة ودع).

وبالبحث في الفرق بين المعاني الدقيقة لهذه المترادفات، جاء تعريف أبي هلال العسكري (ت 395 هـ) لمعنى الترك، حيث قال: " وَالتّرْك عِنْد الْعَرَب: تخليفُ الشَّيْء فِي الْمَكَان الَّذِي هُوَ فِيهِ، والانصرافُ عنه عن عمد؛ وَلِهَذَا يسمونَ بَيْضَة النعامة إِذا خرج فرخهَا تريكة؛ لأن النعامة تَنْصَرِف عَنْهَا". (العسكري، 1412هـ، ج 1، ص 124).

وهنا يتضح أن معنى الترك هو الانصراف عنه دون الرجوع إليه، كما قالوا في بيضة النعامة: تريكة، وفي الفرق بين الترك والتخلية قال العسكري(ت 395 هـ): " الفرق بين الترك والتخلية: أن الترك هو ما ذكرنا، والتخلية للشيء: نقيضُ التوكيل به، يقال: خلاه، إذا أزال التوكيل عنه، كأنه جعله خاليا لا أحد معه، ثم صارت التخلية عند المتكلمين ترك الامر بالشيء، والرغبة فيه، والنهي عن خلافه...". (العسكري، 1412هـ، ج 1، ص 123).

وهنا يتضح أن معنى التخلية هو التخلي عن الشيء، وإزالة التوكيل عنه؛ ليكون خاليا ليس معه أحد، ولا ريب أن هذه المعاني لا تراعي مناسبة السورة، ومن ثم عدل الله سبحانه في خطاب حبيبه ﷺ إلى ﴿ وَدّعَكَ ﴾، وأكرمه بذكر الضمير وهو الكاف، وقد ألمح شهاب الدين الألوسي (ت 1270 هـ) إلى نكتة العدول إلى التعبير بودعك حيث قال: " قيل: إن المعنى ما قطعك قطع المودع، على أن التوديع مستعارة تبعية للترك، وفيه من اللطف والتعظيم ما لا يخفى، فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعز مفارقته، ... ولَمّا كان المقصود إيناسه ﷺ، وإزالة وحشته عليه الصلاة والسلام، جيء بما يتضمن نفي ما زعموه على أبلغ وجه، كأنه قيل: إن هذا النوع غير المخل بمقامك من الترك، لم يكن فضلا عما زعموه من الترك المخل بعزيز مقامك". (الألوسي، 1415هـ، ج 15، ص 374، 375).

ولعل اهتمام الألوسي (ت 1270 هـ) بمناسبة نزول السورة، جعله أكثر دقة وبيانا في بيان بلاغة العدول إلى التعبير بودعك،.

ثم إن التوديع يكون معه رجاء العودة، قالت بنت الشاطئ (ت 1419 هـ) : " ... وأما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة وأمل البقاء ... ". (بنت الشاطئ، ص 268).

ب–العدول إلى لفظ ﴿ ربّكَ ﴾: وكان ذلك في ثلاث مناسبات، الأولى في بداية السورة في الآية الثالثة، والثانية في وسط السورة في الآية الخامسة، والثالثة في آخر السورة في الآية الأخيرة، وكأنه يريد أن يذكره من حين لآخر بأنه ربه الذي لن يتخلى عنه؛ لذلك عدل إلى لفظ: ﴿ ربّكَ ﴾ دون غيره من أسمائه أو صفاته سبحانه وتعالى، أضف إلى ذلك ما يدل عليه لفظ الرب، من الربوبية والتربية، خاصة وأن السورة تحدثت عن كفالة الله لحبيبه المصطفى ﷺ في يتمه، وإيوائه، ورعايته، وإغنائه بعد فقر، وتلك النعم منوطة بالمربي الذي يحنو ويهتم على من يربيهم.

ج–العدول إلى تكرار (الكاف)، وذلك في مرات عدة، في قوله: (ودعك، ربك، لك، يعطيك، ربك، يجدك، ووجدك، ووجدك، ربك)، والملاحظ أن الكاف العائدة على الرسول ﷺ متصلة بأفعال تدل على رعاية الله لنبيه مثل: (ودعك، يعطيك، يجدك، وجدك)، وقد تبين سبب حذف الكاف من ﴿ قلى ﴾ التي لا تناسب رعاية الله لنبيه ﷺ، كما يلاحظ أن الكاف اتصلت باسم وحيد تكرر ثلاث مرات وهو: ﴿ ربّكَ ﴾، الذي يحمل دلالات حانية تم التنبيه على بعضها في الفقرة السابقة.

وليس من النافلة التنبيه على أن التعبير بكاف المخاطب، والعدول عن ضمير الغائب يعزز من إيفاء السورة بغرضها الأساس، وهو مواساة الرسول ﷺ، وطمأنته والحنو عليه عليه السلام.

د–العدول إلى لفظ: (**السائل**)، حيث عدل عن التعبير بألفاظ مرادفة مثل: (المحتاج، أو العائل)، لا سيما وأنه عبّر قبلها بقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) ﴾، والظاهر أنه لم يُرِدْ بلفظ : السائل الذي يسأل الناس الطعام أو المال؛ إذ يحتمل بقوة أن يراد به أي سائل، سواء فقيرا جاء يسأل الغنى، أم ضالا يسأل الهدى، أم جاهلا يسأل العلم، وبهذا قال جمع من المفسرين، (ينظر بنت الشاطئ، ص 268)، وبهذا يؤدي العدول إلى لفظ السائل ما لا تؤديه ألفاظ أخرى مرادفة كالعائل أو المحتاج، كما أن لفظ السائل يفيد في الوقوف على بلاغة ترتيب الأسلوب في النص القرآني، من خلال الوقوف على العدول في الأسلوب.

3_ العدول في الأسلوب: تبيّن في المطالب السابقة كيف تنوع العدول في أمور عدة، منها الحذف والذكر، كحذف الكاف من قلى، وذكره في ﴿ وَدَّعَكَ ﴾، ومنها التكرار كتكرار كاف المخاطب تسع مرات، والعدولُ في الأسلوب كثير جدا، منه على سبيل المثال لا الحصر:

أ–العدول في الترتيب: ومن الترتيب التقديمُ والتأخيرُ، فتقديم الضحى الذي هو إشراقة الوحي، على الليل الذي هو انقطاعه، كان أكثر مناسبة؛ لأن مواساة المهموم تستوجب تقديم الأمور المفرحة على المحزنة، وفي ذلك قال شهاب الدين الألوسي(ت 1270 هـ): " وتقديم الضحى على الليل بناء على ما قلنا أولاً لرعاية شرفه؛ لما فيه من ظهور زيادة النور، وللنور شرف ذاتي على الظلمة؛ لكونه وجودياً؛ أو لكثرة منافعه؛ أو لمناسبته لعالم الملائكة، فإنها نورانية، وتقديم الليل في السورة السابقة؛ لِما فيه من الظلمة التي هي لعدميّتها أصلٌ للنور الحادث بإزالتها؛ لأسباب حادثة وقيل تقديمه هناك؛ لأن السورة في أبي بكر وهو قد سبقه كفر، وتقديم الضحى هنا؛ لأن السورة في رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو ﷺ لم يسبقه ذلك "، (الألوسي، 1415هـ، ج 15، ص 373).

ومن العدول في الترتيب، مناسبة ترتيب الآيات وتنسيقها على هذا النحو:

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

فبعد أن ذكّر الله تعالى نبيه بنعمه، أخذ يوصيه بما يجب عليه تجاه من يفتقد تلك النعم، فبدأ بالتوصية على الإحسان لليتيم في الآية التاسعة؛ التي تناسب نعمة إيواء اليتيم المذكورة في الآية السادسة، ثم أوصاه بالإحسان للسائل في الآية العاشرة، التي تناسب نعمة الهداية المذكورة في الآية السابعة، ثم أوصاه بشكر النعم المختلفة التي أسبغها الله تعالى عليه؛ التي تناسب نعمة الإغناء التي أنعم الله عليه بها. ومثل هذا الترتيب يمكن توضيحه على هذا النحو:

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6)	=	فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9)
وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7)	=	وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10)
وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8)	=	وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

ومن فوائد هذا الترتيب أنه يساعد بشكل كبير في الوقوف على معنى كلمة السائل، حيث يظهر من خلال هذا الترتيب أن المراد بها ليس العائل المحتاج الفقير، وإنما سائل العلم والهداية من الضلالة، ومن ثم فإن الله تعالى يعلم نبيه ﷺ كيف تكون المعاملة تجاه من يسأل الهداية، فلا تكون مثلا كما كانت مع عبد الله بن أم مكتوم، وقصته المشهورة التي كانت سبب نزول قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5)

فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10) ﴾.

ب–العدول بين الخبر والإنشاء: تبدأ السورة بالعدول إلى الأسلوب الإنشائي في الآيتين الأولى والثانية، من خلال القسم: ﴿ وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) ﴾، ثم العدول إلى الأسلوب الخبري، كنتيجة طبيعية بجواب القسم: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) ﴾، ثم العدول إلى الأسلوب الإنشائي مرة أخرى، من خلال الاستفهام في قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى؟ (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ؟(7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ؟(8) ﴾ ثم من خلال النهي في قوله: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10)﴾ ثم من خلال الأمر في قوله: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11) ﴾. فما قيمة كل هذا العدول؟.

أولا: الخبرُ وأغراضُه: كان الخبر الأول ابتدائيا، حيث جاء الخبر في قوله: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) ﴾ دون مؤكدات، وفيه دلالة على أن المخاطَب – وهو الرسول ﷺ –كان خاليَ الذهن من هذا الحكم، ثم كان الخبر الثاني طلبيا، حيث أكّده مؤَكِّدٌ واحدٌ هو لام الابتداء، وذلك في قوله: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4)﴾، وفيه دلالة على أن المخاطب متردد تجاه هذا الحكم، ثم كان الخبر الثالث إنكاريا حيث جاء مؤَكَّداً بمؤَكِّديْن اثنين، هما: (لام الابتداء، سوف) ، في قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) ﴾، وفيه دلالة على أن المخاطب منكر لهذا الخبر.

هذا ما يحدِّثُ به ظاهر أضرب الخبر كما تنص كتب البلاغة، لكنها تنص أيضا على أن الخبر قد يخرج عن مقتضى ظاهره، ومنه إنزال المخاطَب منزلة المتردد أو المنكر، وإن لم يكن منكرا أو مترددا. (عتيق، ص 49، ص 57 – ص 60).

والمتأمل في درجات تأكيد الخبر يلاحِظُ بيسر أن الخطاب الموجه للرسول ﷺ خاصة جاء دون تأكيد، ويسمى هذا الخبر ابتدائيا، يقبَلُهُ المخاطَب ويستفيدُ العِلمَ به، ثم جاء الخبر الثاني مؤَكَّداً بمؤَكِّدٍ واحدٍ؛ ليفيد أن القادم أفضل للرسول ﷺ والمسلمين، وأن العاقبة لهم على الكافرين، ومن ثم عدَلَ سبحانه وتعالى إلى تأكيد هذا الخبر؛ لطمأنة المترددين من الصحابة، ثم جاء الخبر الثالث مؤَكَّداً بمؤَكِّدَيْنِ اثنيْن؛ للدلالة على أن الخطاب ليس موجها للرسول ﷺ والمسلمين فحسب، بل والمشركين أيضا؛ لأنهم بعد

شماتتهم باحتباس الوحي، نزلت السورة حانية وادعة على الرسول ﷺ والمسلمين، قاسية محبطة للكفار والمشركين الذين كانوا من ضمن المخاطبين بأن الله تعالى سينصر دينه وسيعطي نبيه حتى يرضى.

ثانيا: الإنشاءُ وأغراضُه: عدل سبحانه إلى الأسلوب الإنشائي في ثمان آيات من السورة هي الآية الأولى، والثانية، والسادسة، والسابعة، والثامنة، ونهاية كل من الآية التاسعة، والعاشرة، والحادية عشرة، وكلها كانت من نوع الإنشاء الطلبي، عدا الآيتين الأولى والثانية، فقد كانتا من نوع الإنشاء غير الطلبي؛ ولا شك أن العدول عن التكثير من الإنشاء غير الطلبي أمر مقبول؛ وذلك لقلة الأغراض البلاغية التي تتعلق به، ولأن أكثر أنواعه في أصلها أخبار نقلت لمعنى الإنشاء. (ينظر عتيق، ص 70).

1-أسلوبُ القَسَمِ: عدَلَ إليه في قوله: ﴿ وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) ﴾، والقسمُ إنشاءٌ غير طلبي، وهو ما لا يستدعي مطلوبا، وقد تقدم عرض فائدة العدول بالقسم بالضحى الذي يعني إشراق نزول الوحي، والليل الذي يعني احتباس الوحي. وإن كان الإنشاء غير الطلبي قليل الأغراض البلاغية، إلا أنّ له فوائدَ معنوية، فمن فوائده: " أن يتحقق وجود معناه في الوقت الذي يتحقق فيه وجود لفظه، أي في الوقت الذي يتم التلفظ به " (عتيق، ص 70).

وبهذا يمكن الاستدلال على أن الضحى هو إشراق نزول الوحي، فقد أقسم الله سبحانه بالضحى وحيا؛ ليتحقق وجود المعنى مع وجود اللفظ، وكذلك بالنسبة لليل احتباس الوحي، فقد وافقت نهاية الاحتباس بداية القسم، الذي به انتهى ليل إبطاء الوحي.

2-أسلوب الاستفهام: وقد عدل إليه في قوله: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى؟ (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ؟(7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ؟(8) ﴾، وهو استفهام تقريري عدَل إليه البارئ جل وعلا؛ للدلالة على أن حبيبه المصطفى ﷺ مُقِرٌّ معترفٌ غيرُ منكر لنعم الله عليه، وفائدة هذا التقرير هو " حَمْلُ المخاطَب على الإقرار بما يعرفه إثباتا ونفياً؛ لغرض من الأغراض " (عتيق، ص 90) ، والغرض منه في هذه الآية تطمين الحبيب المصطفى ﷺ بأن ربه الذي آواه، وهداه، وأغناه لن يتخلى عنه.

3-أسلوبُ النّهي: وعدل إليه في قوله: ﴿ فَلَا تَقْهَرْ (9) فَلَا تَنْهَرْ (10)﴾، والنهي في حقيقته " طلب الكف عن الفعل، أو الامتناع عنه على وجه الاستعلاء والإلزام "، (عتيق، ص 79)، ولا ريب أن هذا المعنى الحقيقي للنهي لا يناسب سياق السورة ولا مناسبة نزولها؛ لذا عدل به هنا -من خلال السياق – إلى الخروج به عن معناه الحقيقي؛ ليكون الغرض المعنوي والبلاغي منه في هاتين الآيتين

هو النصح والإرشاد، فبعد أن أسبغ رب العزة على حبيبه المصطفى ﷺ كل هذه النعم، أرشده من خلال النهي إلى كيفية معاملة اليتيم والسائل.

4- أسلوبُ الأمْر: وعدل إليه في قوله: ﴿ فَحَدِّثْ (11) ﴾.وهو في حقيقته " طلب الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام "، (عتيق، ص 71)، غير أنه هنا خرج عن هذا المعنى الحقيقي؛ لاحتماله أغراضا أخرى منها: النصح والإرشاد، ومنها الندب، وعليه اختلف المفسرون في الغرض من الأمر هنا، هل هو على الوجوب، أم على الندب؟. (ينظر الألوسي، 1415هـ، ج 15، ص 383، وابن عادل، 1419هـ، ج 20، ص 394، وابن عطية، 1422هـ، ج 5، ص 495، والقرطبي، 1384هـ، ج 20، ص 102).

وقد لخص الطاهر بن عاشور (ت 1393هـ) الخلاف بقوله: " ومنها ما يدخل التحديث به في واجب الشكر على النعمة، فهذا وجوبه على النبي ﷺ خالص من عروض المعارض؛ لأن النبي ﷺ معصوم من عروض الرياء، ولا يظن الناس به ذلك فوجوبه عليه ثابت، وأما الأمة فقد يكون التحديث بالنعمة منهم محفوفا برياء أو تفاخر". (ابن عاشور، ج 30، ص 404).

هكذا كان العدول إلى الإنشاء بين طلبي وغير طلبي يفيد معانٍ متعددة، من خلال أربعة أنواع من أساليب الإنشاء في هذه السورة القصيرة، فمن فائدة تقرير تحقق النصر والفتح من خلال القسم، إلى غرض الإقرار بالنعم من خلال الاستفهام، إلى هدف النصح وإرشاد عن طريق النهي، ثم إلى إفادة وجوب شكر كل تلك النعم التي أسبغها الله سبحانه على حبيبه المصطفى ﷺ خاصة، وعلى المسلمين عامة.

والخلاصة:

- كلما تعاهد المرء النص القرآني بالدرس والبحث والتأمل، تكشّفت له أسرار، وظهرت أمامه لطائف بلاغية وفوائد، ولا أدل على ذلك ما تسنى الوقوف عليه من بلاغة أسلوب العدول في هذه السورة القصيرة.
- معرفة العرب القدامى لأسلوب العدول الذي أخذ تسميات حديثة عدة منها: الانحراف، الانزياح، الانتهاك.

- التأكيد على ما ذهب إليه بعض القدامى والمحدثين من أن أسلوب العدول هو أسلوب دقيق، يحتاج صاحبه لملكة خاصة، ومهارة عالية؛ ليكون عدوله من مفردة إلى أخرى، أو من أسلوب إلى آخر، بيانا وتحسينا.
- تعددت أدوات العدول وأساليبه في سورة الضحى، سواء في اللفظة المفردة، أم في فواصل الآي، أم في الأسلوب، أم في الجملة، فكان العدول للذكر مثلا مناسبا في مواضع، كذكر الكاف في قوله: ﴿ وَدَّعَكَ ﴾، بينما كان العدول إلى الحذف – وهو نقيضه – هو الأنسب في مواضع أخرى، كحذف الكاف من ﴿ قَلَى ﴾.
- إن معالجة النص القرآني بالتحليل والتأويل – من خلال سورة الضحى – تحتاج من الباحث والدارس أن يضع بعين الاعتبار مناسبة السورة وسياقها؛ لأن ذلك يساعد على كشف بعض الرموز والمصطلحات التي لا يفيد التفسير وحده للوقوف على المراد منها، وإنما تحتاج تأويلا كما هي الحال في تأويل كلمة (الضحى) بإشراقة الوحي من جديد بعد احتباسه مدة؛ لذلك كانت توجيهات شهاب الدين الألوسي (ت 1270 هـ)، وتأويلاته لطيفة في مواضع عدة.
- كان الغرض الأساس من السورة هو الحنوّ على الحبيب المصطفى ﷺ، وتطمينه، وكان نزولها نصرا لدينه وتثبيطا للمشركين الذين ظنوا أن الوحي انقطع إلى غير رجعة؛ لذلك كانت كلماتها وأساليبها تتراوح بين الحنو والإيناس للرسولﷺ والمسلمين، وبين التقريع والتثبيط للكفار والمشركين.
- ما زال النص القرآني، ويبقى، حقلا خصبا للبحث والدراسة، فهو معجزة زمانه وكل زمان، تغري الباحثَ أغوارُه، وتدهشه أسرارُه، ومثل سورة الضحى كشفت بعض تلك الأسرار، منها استعمال الرمز الذي يشرحه السياق، كالرمز بالليل إلى احتباس الوحي وإبطائه، والإشارة بالسائل لطالب العلم.

المصادر والمراجع

المصدر: القرآن الكريم.

المراجع:

1- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، بلا طبعة ، بلا تاريخ.

2- الألوسي، شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبد البارئ عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هجرية.

3- بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، بلا تاريخ.

4- بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، مصر، الطبعة السابعة، 1977ميلادية.

5- الجرجاني، علي بن محمد، التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الأولى ، 1405هجرية.

6- الحسناوي، محمد، الفاصلة القرآنية، دار عمار، الأردن، الطبعة الثانية، 1412هجرية، 2004 ميلادية.

7- الدارقطني، علي بن عمر، سنن الدارقطني، تحقيق عبد الله هاشم المدني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 1386ه، 1966م.

8- الزمخشري، جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هجرية.

9- ابن سلام، الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، الطبعة الأولى ، بلا تاريخ.

10- السيوطي. جلال الدين. أسباب النزول. مراجعة محمد تامر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2004 ميلادية.

11- ابن عاشور، الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، بلا طبعة، 1984 ميلادية.

12- ابن عادل، أبو حفص، تفسير اللباب، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا طبعة، بلا تاريخ.
13- عبد المطلب، محمد، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، الطبعة الأولى، 1994ميلادية.
14- عتيق، عبد العزيز، في البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، بلا تاريخ.
15- العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري على شرح صحيح البخاري، ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبد الباقي، تصحيح محب الدين الخطيب، تعليق عبد العزيز بن باز، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، 1379هجرية.
16- العسكري، أبو هلال، معجم الفروق اللغوية، تحقيق بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي، قُمْ، الطبعة الأولى، 1412 هجرية.
17- ابن عطية، عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422 هجرية.
18- القرطبي، شمس الدين، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني، إبراهيم إطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هجرية.
19- ابن القيم. الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، تحقيق محمد الفقي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، بلا تاريخ.
20- ابن منظور، محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ، بلا تاريخ.